فقهاء معاصرون

الشيخ محـ

لما تلقيت الرغبة في أن أكتب كلمات تحت هذا العنوان ، لتنشر في العدد الخاص من مجلة (دارة الملك عبد العزيز) عن « مؤتمر الفقه الإسلامي » ، فكـّرت في اختيار من يَحسُنُ بي أن أكتب عنهم بهذه المناسبة ، التي نشأت من انعقاد « مؤتمر الفقه الإسلامي العالمي » في مدينة الرياض في أول ذي القعدة من عام ١٣٩٦ ، الذي دُعي إليه الفقهاء والعلماء من مختلفِ الأصقاع ، واشترك فيه العالِمُ المغربي والمشرقي . . . جنباً إلى جنب ، وتبارت فيه هِمَمُ المؤتمرين لإبداء مزايا هذا الفقه الإسلامي العظيم ، المستخرج من نصوص الشريعة الإسلامية الغراء .

فرأيت أن يكون الحديث عن خمسة من فقهاء هذا القرن ، من أقطار مختلفة ، أحدهم من الشام ، والثاني من مصر ، والثالث من

● بقلم:الشيخ عبد الفتاح ابو غده

ـمد بن ابراهيـم

الغرب الأقصى ، والرابع من الهند ، والخامس من جزيرة العرب ، لتكون مشابهة بين المناسبة وسببها .

وهم بحسب تقدُّم سِنِيْ وفَيَاتِهم : العلامة محمد أنور شاه الكشميري الهندي الحنفي ، المولود سنة ١٢٩٢ ، والمتوفى سنة ١٣٥٢ ، والعلامة أحمد بن محمد الزرقا الحلبي الحنفي ، المولود سنة ١٢٨٥ ، والمتوفى سنة ١٣٥٧ ، والعلامة أحمد إبراهيم إبراهيم المصري الحنفي ، المولود سنة ١٢٩١ ، والمتوفى سنة ١٣٦٤ ، والعلامة محمد بن الحسن الحجوي المغربي المالكي ، المولود سنة ١٢٩١ ، والمتوفى سنة ١٣٧٦ ، والعلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ النجدي الحنبلي ، المولود سنة ١٣١١ ، والمتوفى سنة ١٣٨٩ ، رحمهم الله تعالى ، وأجزل لهم المثوبة والرضوان .

تقدمـة :

لقد حظي القرن الرابع عشر الذي نحن فيه ، بطبقات غير قليلة من الفقهاء اللامعين ، ذوي العلم والبصارة ، والمعرفة المستنيرة ، والذهن المتقد الواسع اللمّاح ، وكانوا بحكمة الله تعالى موزعين في أرجاء المعمورة كالنجوم المنثورة ، يُشعُّون بفقههم وبارق أذهانهم على ربوع الإسلام ، وينشرون فيها العلم والدين والهدى والرشاد .

وبحمد الله تعالى ما كان يخلو قطر من الأقطار الإسلامية من فقيه أو فقهاء من هؤلاء العلماء البارزين ، تتعاقب طبقاتهم ، وتتلاحق أفواجُهم ، ويتلو الخالِفُ منهم السالف ، متناوبين في حمل هذا الدين ، أمناء عليه ، حريصين على إقامته في الأرض ، محافظين على سلامته من عَبَثِ العابثين وكيد الكائدين ، يُظهرون محاسنه ، وينشرون حقائقه ، ويقدمونه ميسّراً لكل متفقه ومسترشد بهذا الإسلام العظيم .

وهؤلاء الفقهاء المنثورون في أقطار الإسلام ، يَبْدُون لمن يحصيهم كثْرةً ، ولكنهم يعتبرون قلةً بالنظر إلى اتساع العالم الإسلامي عدداً وبقاعاً وحاجةً إلى العلماء والفقهاء ، في هذا العصر الذي تلاحقت فيه الوقائع الجديدة ،

وتنوعت فيه جوانب الحياة ، وتلوّنت فيه التصرفات والأعمال ، واتصل فيه الشرق بالغرب ، وتشابكت فيه المصالح والمفاسد ، واشتدت الحاجة إلى معرفة المشروع من المحظور ، ليكون الناس على بصيرة من دينهم في شؤون دنياهم .

وقد كان لكثير من هؤلاء الفقهاء اجتهادات وبحوث فيما جدّ من الوقائع ، أحرزوا في بعضها أجرين ، وفي بعضها أجراً واحداً ، شأنَ كل مجتهد في حكم شرعي لم يُنَصّ عليه من صاحب الشرع .

والفقهاء الذين خصصتهم بالحديث عنهم في هذه المقالة ، سأتحدث عنهم من جوانب نشأتهم التعليمية ، وحياتهم الفقهية ، وآثارهم العلمية ، ومآثرهم في المجتمع الإسلامي ، وقد يكون لبعضهم آراء في غير الفقه تبعد عن الجادّة ، لا أتعرض لها هنا نقداً أو بياناً ، حفاظاً على وحدة الموضوع وقَصْره على الجانب الفقهي من حياة ذلك العالم الفقيه ، واستلهم الله تعالى السدادَ والرشادَ في القول والعمل .

هذا ، وكان من المقرر أن تُنشَر تراجم هؤلاء الفقهاء الخمسة ، في العدد الخاص عن « مؤتمر الفقه الإسلامي » المشار إليه ، ولكن لطول تراجمهم عندي ، وضيق الصفحات المخصصة لهذا الموضوع في العدد المذكور ، اقتضى الأمرُ نَشْرَ تراجمهم تِباعاً في أعداد مجلة (الدارة) الزاهرة ، فرأيتُ أن يُبدأ بأحدثهم عهداً ، وأقربهم بلداً ، فيكون الأوّلُ منهم من جزيرة العرب ، وهو :

١ ـ الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ

علامة الديار السعودية ومفتيها

لمحة عن نشأته وحياته[١] :

هو سليل العلماء الأكابر ، ومن بيت العلم المعروف ، العلامة الحجة ، والفقيه المحقق الحنبلي الضليع ، الأصولي المتمكن ، المحدث المفسر ، المطلع البحاثة ، مفيد الطالبين ، ومرجع القضاة والمفتين ، وشيخ كبار العلماء في الديار السعودية غــير منازع ، الشيخ محمد بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حسن بن إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ولد في مدينة الرياض مهد والدة قبله ، في ١٧ من المحرم سنة ١٣١١ ، ونشأ في بيت عريق بالعلم والفضل ، تحت كنف والده العلامة الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد اللطيف علامة المعقول والمنقول .

وكان والده الشيخ إبراهيم رحمه الله تعالى من العلماء المذكورين في هذه الديار ، معروفاً بالذكاء والورع والتقوى ، عالماً مستفيداً ومعلّماً مفيداً ، وقاضياً مشهوداً له في مدينة الرياض ، استقضاه عليها الملك عبد العزيز في سنة ١٣٢١ ، واستمر في القضاء إلى آخر حياته ، مع القيام بالتدريس ونشر العلم والدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) استقيت هذه الترجمة مما كتبه الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ في كتـــابه « مشاهير علماء نجد » . وما كتبه الشيخ ابراهيم بن عبد الله آل الشيخ ، وما كتبه غيره في العدد الخاص من جريدة « الدعوة » ذي الرقم ١٣١ ، ومما سمعته من سماحة الشيخ عبد العزيز نجل الشيخ محمد بن ابراهيم . ومن معرفتي بالشيخ رحمه الله تعالى .

فنشأ الشيخ محمد في بيئة علمية واعية ، ورافة ظلال المعرفة ، ولما بلغ الثامنة من العمر ، أدخله والده مدرسة تحفيظ القرآن ، فتلقى القرآن الكريم نظراً وسماعاً من الشيخ عبد الرحمن بن مفيديج تلقيَّ ضبط وإتقان ، وأتمه تلاوة وحفظاً وهو في التاسعة من عمره . ولما أصيب بفقد بصره من رمد نزل به وهو في السادسة عشرة من عمره ، أعاد قراءة القرآن وتلقيه عن ظهر قلب ، حتى أتقنه غيباً وحفظه حفظاً جيداً .

وشرع في قراءة العلم على والده ، فقرأ عليه مختصرات الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ، ومبادىء النحو ، وعلم الفرائض ، وكان والده يُتقن هذا العلم إتقاناً تاماً ، لمزاولته منصب القضاء في مدينة الرياض ، وقرأ على غيره من شيوخ العلم في مدينة الرياض وغيرها ، فقرأ النحو على الشيخ حَمَد بن فارس الفقيه النحوي المعروف ، وقرأ الفرائض على الشيخ عبدالله بن راشد ابن جلود العنزي الفرضي المشهور ، وقرأ الفقه والحديث على العالم العلامة الجليل ، والفقيه المحدث النبيل الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن آل الشيخ ، وقرأ الفقه أيضاً على العلامة القاضي الشيخ محمد بن حمود ، وغيرهم .

كما قرأ على عمه الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف ، والشيخ سعد بن عتيق ، وكان هذان الشيخان من كبار شيوخه ، وقد تأثر بهما في العلم والفضل والورع والتقوى والخدمة العامة للمسلمين والدعوة إلى الله تعالى ، منذ رأيت من المناسب الإفاضة في الحديث عنهما من بين شيوخه ، لأن الوقوف على شيء من سيرتهما ، يكشف جانباً هاماً في اكتمال شخصية الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى ، فأقول :

قرأ على عمه الشيخ الجليل عبدالله بن الشيخ عبد اللطيف : « كتاب

التوحيد » للشيخ الجد محمد بن عبد الوهاب ، ثم كتاب « العقيدة الواسطية » و« الحمدية » للشيخ ابن تيمية ، كما قرأ عليه الفقه والحديث وعلومه ، والتفسير وأصول التفسير وغيرها من العلوم التي كان الشيخ مجلياً فيها .

وكان عمه الشيخ عبدالله إماماً ماهراً في العلم ، حلاّل مشكلات وكشّاف معضلات ، علامة الديار النجدية ومفتيها وفقيهها ، مشهوراً برجاحة العقل ، وسعة الكرم والفضل ، مهيباً وقوراً ، مسموع الكلمة ، نافذ الأمر والنهي عند الخاصة والعامة وولاة الأمر ، حميد السجايا جم المناقب ، مقصوداً من الآفاق ، يتوافد عليه العلماء وطلاب العلم ووجوه الناس من كل جانب ، ينهلون من علمه ، ويقتبسون من حصافة عقله ، ويتعلمون منه تحقيق المسائل ، ويستجلون منه غوامض العويصات .

وكانت داره الواسعة في حي دُخْنَة عامرةً بقراءات كتب الحديث والتفسير والتوحيد والفقه ، تزخر بالطلبة والعلماء والمحصِّلين النبهاء ، فتخرج به أفواج كثيرة لا تحصى من كبار ذوي العلم المرموقين ، والقضاة النابهين المشهورين ، نشروا العلم في ربوع البلاد ، ونهضوا بالدعوة إلى الله تعالى بعلم وبصيرة ، مستنيرين بهدي هذا الشيخ الجليل وحُنكته ، وعلمه وحِكمته ، فتمكنوا من إزالة الجهالة والانحراف في كل بقعة دخلوها ، وكل قرية نزلوها ، فاستنارت بهم الديار والقلوب ، ونفع الله بهم النفع الكثير .

وكان هذا الشيخ إلى جانب ضلاعته في العلم ، ومتانته في التحصيل

والمعرفة[1] ، على سيرة السلف الصالح وسمتهم ، صادق اللهجة ، غزير الإخلاص ، حسن الخلق ، كريم التواضع ، وفير السخاء والعطف على الفقراء .

وكان هذا الشيخ الجليل فصيحاً بليغاً خطيباً مفوّهاً ، يقوم بخطبة الجمعة في المسجد الجامع بالرياض ، وقد آتاه الله القبول في الناس ، وأكرمه بحُسن الصوت والقراءة ، فكانت خطبه تبكي السامعين ، وتوقظ الغافلين ، وتحيي القلوب من مَوَاتها ، فانتفع الناس به أيما نفع ، وحاز على محبتهم له وحبات قلوبهم .

وكان الملك عبد العزيز – وهو من هو رجاحة عقل ، وبصارة ذهن ، ومضاء رأي ، وغزارة فهم – يأتي إلى هذا الشيخ المبجّل في داره ، ويحضر دروسه ، ولا يخرج عن رأيه ومشورته ، فكان الشيخ مرجع الخاص والعام في البلاد ، وتأثرت بهديه وإرشاده بوادي الأعراب ، فأقبلوا على الدين والعبادة وقراءة القرآن ، وتعلموا واجبات الإسلام ، وتخلّوا عما كان متمكناً فيهم من الجهل والبعد عن الدين .

فنشأ الشيخ محمد بن إبراهيم في ساحة هذه الفضائل وعبير هذه الشمائل في بيت عمه ، وعَبَّ منها ونهل وتضلّع ، مع ما آتاه الله من الاستعداد الفطري والنبوغ الذاتي ، وتعلّم من عمه الإمام الكبير بالصحبة والمجالسة ، والتدريس

(١) شغل هذا الشيخ بنشر الدعوة والامامة في الامة وواجباتها عن التاليف في العلم ، فما كان له الا جملة رسائل كتبها في اغراض متعددة ، لو جمعت على حدة لبلغت مجلدا ، ومنها رسالته النافعة : « الاتباع وحظر الغلو في الدين والابتداع » ، وهي منشورة ضمن « الرسائل والمسائل النجدية » .

والمحادثة في الحضر والسفر : كيف تُبنَى المكارم ، وتُنشأ الأجيال على الخير والعلم والدين .

وأثمرت صحبته لعمه الصحبة الطويلة أثني عشر عاماً : أفضلَ الثمرات في مستقبل حياته ، ورفيع مقاصده ، في العزم على نشر الدين والعلم والدعوة إلى الله تعالى ، وكان عمه يُوليه أتمَّ العناية والرعاية والمَعَزَّة ، لما يتفرس فيه من بوارق الإمامة والرجولة والنبوغ ، وكان الشيخ العم يحتل من نفس تلميذه وابن أخيه : السويداء وحصاة القلب ، وتلقي منه تبادل التقدير والتعظيم والحب ، فانطبع التلميذ بالشيخ خير انطباع .

ولما مات الشيخ العم في سنة ١٣٣٩ ، عن أربع وسبعين عاماً من العمر ، انصدع قلبُ التلميذ البار عليه ، وفاضت نفسه بالأسى والألم على فقد هذا الركن الركين الذي كان يأوي إليه ، فرثاه بقصيدة لامية باكية طويلة ، بلغت خمساً وخمسين بيتاً ، عدَّد مناقبه ومآثره ، ومحامده ومفاخره ، وخلَفه في إمامة المسجد في حي دُخْنَة ، وفي التدريس والفتيا وحل المشكلات وغيرها من المهام الجلى التي كان العم الراحل يملأها وينهض بها بمواهبه وعلومه وكريم سجاياه .

أما الشيخ الثاني الذي تأثر به الشيخ محمد بن إبراهيم ، وتأسّى بسيرته وأخلاقه ، ولازمه كل الملازمة ، وانتفع به أيضاً علماً وعملاً ، وورعاً وزهداً ، وغوصاً وتحقيقاً ، فهو العلامة المحقق اللامع ، المفسر المحدث المتقن ، الفقيه الضليع ، النحوي البارع ، الشيخ سعد بن عتيق ، المتوفى سنة ١٣٤٩ ، فقد كان هذا الشيخ رحمه الله تعالى فحلاً من فحول العلم الكبار ، متمكناً من جملة علوم من علوم الشريعة ، كعلم التوحيد والتفسير والحديث والرجال والمصطلح والفقه والأصول والنحو .

وكان في الحديث الشريف وعلومه من كبار أهله ، ولشدة شغفه بالسنة المطهرة وعلومها ، شدّ الرحل في طلبها وتحصيلها ، بعد اكتمال تحصيله على علماء بلاده ، فسافر من بلده مدينة العمار في نجد ، إلى ديار الحديث والمحدثين في الهند ، ودخل مدينة بهويال وغيرها من البلاد التي فيها أكابر المحدثين ، وأخذ عنهم الحديث رواية ودراية ، وأطال المقام هناك زمناً طويلاً ، فجلس تسع سنين كوامل ، حتى ملأ وفاضه ، وارتوى عطشه بعض الشيء .

وتلقى هناك من المحدث الكبير الشهير المحقق الناقد ، الضابط المتقن الشيخ نذير حسين ، والشيخ محمد بشير السندي ، والشيخ سلامة الهندي ، وحسن صديق خان ، وغيرهم من المشتغلين بعلوم الإسناد والرواية ، وبقي يقرأ كتب الحديث على علمائه في الديار الهندية تسع سنوات كما أسلفت ، حتى تمكن من زمام هذا العلم الشريف وغدا من أهله العارفين به ، والواهبين له وجودهم وحياتهم .

وفي طريق عودته من الهند ، مكث بمكة المكرمة مدة طويلة ، فأخذ عن جملة من أفاضل شيوخ الحرم ، كالشيخ الفقيه أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدي ، والشيخ حسب الله الهندي ، والشيخ عبدالله الزواوي ، والشيخ أحمد أبو الخير ، ثم عاد إلى وطنه نجد ينشر السنة وعلومها : عِطراً فوّاحاً وشَذَىً نفّاحاً ، ويتجمل بها في سيرته وسلوكه ، ويعممها بحاله ومقاله لطلابه ومريديه رواية ودراية وضبطاً وإتقاناً ، فكثُر الانتفاع به ، وتعشقته القلوب والأرواح ، والتفت عليه الطلبة من كل جانب .

وكان هذا الشيخ (سعد بن عتيق) رحمه الله تعالى : عالي الهمة في الإفادة ، شديد الاهتمام بالعلم والتحقيق ، مشغوفاً بحب السنة المشرَّفة وعلومها ،

غيوراً على اللغة العربية وما يتصل بها ، يحافظ عليها في نطقه وتدريسه وتعليمه وتقريره وبيانه كله ، ويكره اللحن فيها أشد الكراهة ، ويستهويه التحقيق العلمي دائماً فيما يتعلمه وفيما يُعلِّمه ، وكان متحلياً بصفات عليا من صفات علماء السلف الصالح : الورع ، والزهد ، وقلة الكلام ، وشدة التثبت والضبط مع الذكاء المتقد ، والفهم العميق ، وسعة العلم الراسخ ، والغوص والإتقان فيه .

وقد وصَفَه من تحدَّث عنه وعرَّفه بأنه « شديد التحري والضبط في دروسه ، يضبط الألفاظ ، ويحترز من اللحن وإن قل ، لا يُقرأ عليه كتاب إلا إذا كان قد راجع جميع ما عليه من شروح وحواش ، واستوفاها مطالعة . وكان لا يَتْرُك الطالب يقرأ عليه من عبارات الفقهاء أكثر من أربع مسائل أو خمس ، ثم يُشبع الكلام عليها منطوقاً ومفهوماً ، ويقرر عليها تقريراً واضحاً مفيداً ، يفهمه الطالب ويرسخ في ذهنه »[1] .

وقد وجد الشيخ محمد بن إبراهيم بُغْيَته وطَلِبَتَه عند هذا العالم الثَّبْت ، والمحقق الأَنْيق ، الفقيه الأصولي ، المفسر المحدث ، المتفنن النحوي ، وكان هذا الشيخَ الضالةَ المنشودة للشيخ محمد بن إبراهيم ، والشخصيةَ التي تُروي نَهمَه العلمي وزاده الروحي ، خاصة بعد ارتحال عمه الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف إلى جوار ربه ، فلازم الشيخَ ابنَ عتيق أتم الملازمة كما أسلفت ، وله منه إجازة في الحديث الشريف وما تلقاه عنه من العلوم ، كما له إجازة أيضاً من بعض محدثي الهند كالشيخ حسين بن محسن الأنصاري ، والشيخ عبد الستار الدهلوي .

(1) ترجمته في كتاب « مشاهير علماء نجد » ص ٣٢٤ .

ومن أجل هذه المزايا الرفيعة التي كان عليها الشيخ سعد بن عتيق ، في سلوك ذاته ، وسعة علمه ، وسمو سمته وأخلاقه ، اختاره الملك عبد العزيز أن يكون بجانبه ، وكان يتولى قضاء الأفلاج ، فاستدعاه منها إلى الرياض ، وولاّه قضاء الدماء فيها ، والنظر في جميع القضايا التي تتعلق بالبوادي ، وأسند إليه إمامة الفروض الخمسة في المسجد الجامع الكبير ، فكان يقوم بالتدريس ونشر العلم لأفواج الطلبة النابهين في الجامع الكبير ، في الغدو وبعد الزوال من كل يوم .

في هذا الخضم العلمي ، والبيئة الحافلة بالزاد الروحي والعقلي والسلوكي عند هذين الهُمَامين : (عبدالله بن عبد اللطيف) و (سعد بن عتيق) وغيرهما من الشيوخ الأجله : نشأ العالم الحصيف محمد بن إبراهيم ، وتكاملت شخصيته العلمية ، وتوازنت مسالكه ، وانقدحتْ عزَمَاتُه ومقاصده الرفيعة ، فلا عجب إذا رأيناه من بعد غَدَا شيخَ الديار على الإطلاق ، والمذكورَ بالعلم والفضل في الآفاق ، فقد رُزق منشأ كريماً ، وبيئة طيبة صالحة عالمة ، ومواهب ذاتية لامعة فذة ، جعلته فريداً في علمه وحصافته بين الشيوخ ، واسع الخِبرة في بني قومه وغيرهم من الناس .

جهوده في نشر العلم وإنشاء العلماء :

لقد كان عمه الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف يملأ في حياته وصحته جَنَبَات البلاد علماً وفضلاً وزعامة دينية صادقة ، كما سبقت الإشارة إليه ، ولما كان في مرض موته ، وشعر بالفراغ الكبير الذي سيكون بعد وفاته ، رأى أن العالمَ الذي يملأ هذا الفراغ بعده ، وينهض بتلك الأعباء الجسام ، ويمكنه إمامةُ الأمة في دينها وتوجيهها إلى السداد والرشاد ، هو ابن أخيه الشيخ

محمد بن إبراهيم ، فأوصى الشيخُ الملكَ عبد العزيز به خيراً ، وأعلمه بكفاءته العلمية والشخصية ، وأنه يصلح أن يكون خليفةً عنه بعد مماته ، في كل ما كان يقوم به من نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى والإفتاء وحل المشكلات العامة وتذليل الصعاب .

ولما توفي الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى ، عيّن الملك عبد العزيز : الشيخ محمد بن إبراهيم خَلَفاً له في الإفتاء والتدريس وإمامة المسجد مسجدِ عمه في حي دُخْنَة ، وأنزله من نفسه ومَشُورته منزلة عمه الراحل . وكان الشيخ محمد في ذروة شبابه واكتمال نشاطه وحيويته ، يبلغ من العمر ٢٨ عاماً .

فنهض خيرَ خلف لخير سلف في كل ما كان يقوم به عمه ، وصار مرجع الناس في الإفتاء ، وإماماً للناس في الفروض الخمسة في مسجد الشيخ ، وشيخ العلم والتعليم فيه أيضاً ، فكان يجلس فيه لطلبة العلم من بعد صلاة الفجر حتّى بعد صلاة العشاء ، تَقرأ عليه الأفواج في جملة من العلوم الشرعية والعربية ، وهو بين ظهرانيهم مَعين لا يَنْضُب ، ونشاط لا ينقطع ، وعلم لا ينحسر ، ودأب عجيب دائم ، لا يغني هذا الكلامُ عن تصوره حقيقةً ، ولذا سأدع الحديث هنا لتلميذه فضيلة الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف ، إذ يقول في ترجمته في كتابه « مشاهير علماء نجد » ص ١٧٠ – وهو يتحدث عن طريقة تدريس الشيخ وأوقات جلوسه للتعليم والمستفيدين :

« كان الشيخ رحمه الله تعالى إذا صلى الفجر ، جلس في المسجد يَقرأ عليه صغار الطلبة في كتاب « الآجرومية » في النحو ، وبعدَهم يقرأ عليه متوسطو الطلبة في كتاب « القطر » لابن هشام في النحو ، وبعدَهم يقرأ عليه كبار الطلبة في « ألفية ابن مالك » وشرح ابن عقيل عليها في النحو أيضاً .

فإذا انتهوا من قراءة النحو في « الألفية » وشرحها ، قرأوا عليه في الفقه في متن « زاد المستقنع » غَيْباً ، فإذا قرأ آخرهم وسكت ، أخذ الشيخ في إعادة ما قرأوه من المتن من حفظه ، وشَرَع يتكلم على العبارات ، ويوضح معاني الكلمات ، فإذا انتهى شرع أحد الطلاب في قراءة شرح « الزاد » المسمى : « الروض المُرْبِع شرح زاد المستقنع » ، قراءةَ ترتيل ، يقف عند كل فقرة وجملة ، والشيخ يُعلِّق على عبارات الشارح وجُمَله ، بكلام يوضح المعنى ويزيل الإشكال ، ويُصوِّر المسائل تصويراً ملموساً ، يقرب المعاني الفقهية إلى أذهان الطلبة ، ويقرر قواعدها في نفوسهم .

فإذا انتهى من تقريره على الفقه ، شرعوا في القراءة عليه في « بلوغ المرام » ، فإذا أشارت الساعة إلى الواحدة نهاراً – بالتوقيت الغروبي وذلك وقت الضحى – انصرف إلى داره وجلس فيها .

فإذا حانت الساعة الثالثة ، جاءه كبار الطلبة وخواصهم ، وقرأوا عليه إلى الساعة الخامسة قبيل الظهر ، ثم انصرفوا ، فإذا أُذِّن بالظهر خرج وصلى بالناس في المسجد ، وجاءه أهل المطوّلات وقرأوا عليه في مختلفِ الكتب ، كجامع الترمذي ، وصحيح البخاري ، وزاد المعاد ، فإذا انتهوا قرأ عليه بعض الطلبة في المتون العلمية غيباً ، مثل كتاب التوحيد ، والعقيدة الواسطية .

فإذا أُذِّن بالعصر خرج إلى داره وجدَّد الوضوء ، ثم رجع وصلى بالناس العصر ، وجلس في المسجد يقرأ عليه أحد أعيان الطلبة في بعض الرُّدُود ، فإذا انتهى قرأ عليه جملة من الطلبة في مصطلح الحديث ، فإذا انتهوا قرأوا عليه في « العقيدة الحموية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فإذا بقي إلى أذان المغرب مقدار نصف ساعة خرج إلى داره .

فإذا أُذِّن بالمغرب جاء وصلى بالناس ، ثم جلس في المسجد للطلبة ، يقرأون عليه علم الفرائض والمواريث ، فإذا حان أذانُ العشاء ، قام من حلقة درس الفرائض إلى الصف الأول في المسجد ، وتنفّل بركعات ، ثم أمر القارىء فشرع يقرأ عليه في « تفسير ابن كثير » إلى الساعة الثانية والنصف ، فيأمر بإقامة صلاة العشاء ، فإذا أُقيمت وصلّى بالناس تنفّل وأوتر ، وخرج إلى داره وهي قريبة من مسجده .

وكان يرحمه الله تعالى لا يدع طالب العلم المبتدىء يقرأ عليه في الفقه والمطوّلات ، حتى يَقرأ عليه في مختصرات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فإذا قرأها عليه عن ظهر قلبه ، سَمَح له في القراءة عليه في بمختصر « المقنع » وغيره من كتب الفقه ، وفي القراءة في « بلوغ المرام » وغيره من كتب أحاديث الأحكام وشروحها ، و « الروض المُرْبِع » فكان يُربِّي الطلبة بصغار العلوم قبل كبارها .

وقد استمر على هذا الترتيب في الدروس بهذه الصفة ، إحدى وأربعين سنة ، من عام ١٣٣٩ إلى عام ١٣٨٠ ، حيث تَرَكَ جميع الدروس ما عدا درس الفقه و « بلوغ المرام » ، فإنه لم يترك الجلوس لهما بعد صلاة الفجر ، إلى أن حبَسَه المرض . فاقتصر على درس التفسير قبيل القيام إلى صلاة العشاء يقرأ عليه في تفسير ابن جرير الطبري .

وهذه حقبة كبيرة من الزمن في عمر الرجل العالم ٤١ عاماً : تعليماً وتدريساً وتفقيهاً وتحديثاً ، فلقد كان الشيخ (أُمّةً) في جسد رجل ، وكان مسجدُه (جامعةً) في قلب نجد ، ملأتْ بلادَ نجد وغيرَها علماً ، وأنارتها بعلوم الشريعة ، قبلَ أن تُبنَى مدارس التعليم والمعاهد والكليات والجامعات ،

التي هي أثر من آثار نهضة الشيخ العلمية رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم والدين والإسلام خيراً .

وكانت علوم الشيخ عيوناً صافية متدفقة ، أروت الظماء ، وأنشأت العلماء ، وأسّس الشيخ بجهوده المخلصة لنهضة علمية كبرى ، فقد تخرج به أعداد كبيرة لا تُحصَى من العلماء والمحصلين ، وحسبك أن تعلم أن جُلَّ أكابر علماء المملكة اليوم هم من تلاميذه . وهم الذين يشغلون أعلى المناصب العلمية والدينية ، ويملأون مناصب القضاء والافتاء والتدريس والوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله تعالى .

ولم تكن جهود الشيخ قاصرة على التعليم ، بل كان ينهض بمسئوليات كبيرة وكثيرة ، وينتدبه الملك عبد العزيز للمهمات والملمات ، فيُذَلِّلُها ويعيد الأمور إلى نصابها ، بحنكته وحكمته وبالغ حصافته ، ففي سنة ١٣٤٥ بلَغَ التشدُّد والتنطّعُ في الدين ، من سُكّان الغُطْغُط أشُدَّه[١] ، وغَلَوْا غلواً فاحشاً ينافي الشرع الحكيم والهَدْي النبوي ، ويؤدي إلى الفتنة والقَلَق في الناس !

فرأى الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى ، أنه لا يُصلحُ هؤلاء ويَرُدُّهم إلى التفهم الصحيح والاعتدال ، إلا الشيخ محمد بن ابراهيم ، فأرسله إليهم ، ليردهم إلى الصواب والرشاد ، فمكث عندهم ستة أشهر ، يُبَيِّن لهم معاني الكتاب والسنة ، ويشرح لهم أقوال العلماء التي لم يفهموها على وجهها الصحيح ، ويُحذِّرهم من الغلو والإفراط في الحكم على الناس ، حتى ثابوا

(١) الغطغط : بلدة في الجنوب الغربي من الرياض على بعد نحو ٨٠ كيلو متراً .

إلى الجادة المستقيمة ، وسلكوا المسلك الصحيح ، فرجع الشيخ إلى الرياض يتابع نشر العلم في (جامعة نجد الأولى) : مسجد الشيخ .

آثاره الباقية في إقامة مناهل العلم والدين :

لم يكن يُقنع الشيخَ رحمه الله تعالى ما رآه من كثرة الطلبة والعلماء حوله ، فقد رغب أن يعم هذا الازدهار العلمي الأطراف البعيدة والقريبة في المملكة ، على وجه نِظامي موسّع ، ليدخل العلمُ إلى كل قرية وبلد ، فرأى في عام ١٣٦٩ قبل نحو ثلاثين سنة : أن يُنشأ في مدينة الرياض (العاصمة) معهد علمي نِظامي ، يكون تحت نظره وإشرافه ، حتى يحتذي به إنشاء أمثاله في بقية البلاد السعودية ، وأبدى هذه الفكرة لجلالة الملك عبد العزيز ، فرحّب بها جداً ، وأمَرَ بإنشاء المعهد ، وجَعَلَ لطلابه مكافئات سخية .

وتم افتتاح المعهد العلمي بالرياض في سنة ١٣٧٠ ، تحت نظر الشيخ وإشرافه ، وأسند الشيخُ إدارته إلى شقيقه فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم رحمه الله تعالى ، واختار للتدريس فيه أساتذة من أفاضل علماء هذه الديار ومن الأقطار العربية الأخرى ، واختار من طلبته في المسجد آنذاك عدداً وفيراً ، ألحقهم بالسنة الثالثة من المعهد ، نظراً لقراءتهم وتحصيلهم السابق عليه .

وقبل أن يتم تخرج الفوج الأول من طلاب هذا المعهد العتيد ، توجه نظرُ الشيخ إلى إنشاء كلية للشريعة في الرياض ، ليَستكمل فيها الطلبة تحصيلَهم العالي ، فأُنشئت كلية الشريعة في عام ١٣٧٣ تحت إشرافه أيضاً ، واستقبلت خريجي المعهد العلمي ، وكانوا طلائع الخير للأفواج المتلاحقة المتزايدة بعدهم .

ولما ظهرت النتائج الحسنة التي أثمرها افتتاح معهد الرياض ، رأى الشيخ أن تعم هذه الثمرة العظيمة أنحاء المملكة ، فتحصل في عام ١٣٧٤ على أمر ملكي ، يخوله افتتاح فروع لهذا المعهد في سائر جنبات المملكة كما يريد ، فأمر سماحته بافتتاح ستة معاهد في كل من بُرَيْدَة ، وشقراء ، والأحساء ، والمَجْمَعَة ، ومكة المكرمة ، وسامطة من أعمال جازان .

ثم بدأت فروع هذا المعهد العلمي تزداد عاماً بعد عام ، انتشاراً واتساعاً وكثرة في الطلاب الواردين إليها ، وبالتالي المتخرجين بها ، فرأى سماحته أن يكون للغة العربية لغة القرآن الكريم كلية مستقلة ، تستقبل أفواجاً من الطلاب أيضاً إلى جانب كلية الشريعة ، فأنشئت كلية اللغة العربية بالرياض في عام ١٣٧٤ ، وكانت تحت إشرافه أيضاً .

ثم تتابع افتتاح المعاهد العلمية في أنحاء المملكة ، فكان معهد علمي في كل من المدينة المنورة ، وحائل ، وأبها ، والزلفي ، وحوطة بني تميم ، بالجُرَشي ، وجُدَّة ، والدمّام ، وتبوك ، والدلم ، والأفلاج ، والطائف ، والرس ، وجازان ، وعَرْعَر ، والحَفْر ، ووادي الدواسر ، ونجران ، والجوف ، وبيشة ، والبُكيرية ، والباحة ، وحوطة سدير ، والقويعيّة ، والبدائع ، وحريملاء ، و . . .

ورأى رحمه الله تعالى أن مما ينبغي أن يواكب تأسيس هذه المعاهد والكليات بالرياض ، إنشاء مكتبة عامة ، تتوافر فيها الكتب الكبيرة والنادرة للطلبة والعلماء ، مما لا يقدر على شرائه واحتوائه الأفراد ، فأنشئت المكتبة السعودية في حي دخنة في سنة ١٣٧٠ ، من أول يوم رفع فيه صرح المعهد العلمي ، وكانت في تأسيسها وتكوينها وإدارتها تحت إشرافه ونظره .

وقد جلب إليها الشيخ نوادر الكتب والمصادر العلمية ، من شتى البلدان العربية وغير العربية ، وحرص على تزويدها بأمهات كتب التفسير والحديث والرجال والمصطلح والفقه والأصول والتاريخ والأدب والشعر واللغة وغيرها من العلوم الإسلامية ، واقتنى لها المطبوعات ، وصوّر لها كثيراً من المخطوطات المهمة مما قدّر أن الحاجة اليه سريعة ، فَغَدَتْ من أغنى المكتبات العامة في الرياض إن لم تكن هي أولها إنشاء وتأسيساً ، وفيها طائفة من المخطوطات النادرة.

ثم اتجه نظر الشيخ رحمة الله عليه ، إلى أن هـذا الخير في نشر العلم لا ينبغي أن يكون قاصراً على أبناء المملكة ، بل ينبغي أن يشمل أبناء المسلمين في آفاق الإسلام كلها ، فأنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٨١ تحت إشرافه وبرئاسته ، واستقبلت طلاب العلوم الشرعية من شتى بقاع الإسلام ، يلقنون العلم مجاناً ، ويكرمون بالمكافأة السخية والرعاية الوارفة ، ويسكنون في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام مهوى قلوب المسلمين .

ولما اتسع نطاق القضاء في المملكة ، وأخذت الحاجة إلى قضاة الشرع الحنيف تزداد يوماً بعد يوم ، نظراً لاتساع العمران في البلاد السعودية ، رأى سماحته أن ينشأ معهد عال لتخريج القضاة فيه ، فأنشىء المعهد العالي للقضاء بالرياض في عام ١٣٨٥ تحت إشرافه وبرئاسته أيضاً واختار للتدريس فيه كبار أهل العلم من علماء المملكة ومن غيرها .

آثاره في مستوى المسئوليات الإدارية والشرعية :

هذا الذي تقدم عنه هو بعض جهود الشيخ وجهاده في إقامة مناهل العلم والدين ، وأما جهوده على مستوى المسئوليات الإدارية والشرعية فهي لا تقل شأناً وعظمة وجهاداً ، عن هذه الجهود الطيبة المثمرة .

ففي سنة ١٣٧٣ أنشئت دار الإفتاء والإشراف على الشؤون الدينية تحت رئاسته . وكان الشيخ يُستَفْتَى في كبار المسائل وصعابها من داخل المملكة وخارجها ، فيجيب السائلين ويفيد المستفيدين ، حتّى تكوّن من فتاواه مجلدات كثيرة .

وفي سنة ١٣٧٦ أنشئت رئاسة القضاة في نجد وملحقاتها والمنطقة الشرقية والشمالية ، وأسندت رئاستها إليه ، ولما توفي سماحة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة في الحجاز سنة ١٣٧٨ رحمه الله تعالى ، ضُمّت رئاسة القضاة في الحجاز إلى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ، وتوحّدت رئاسة القضاة فيه . وأنشأ في عهد رئاسته كثيراً من المحاكم الشرعية في بلدان المملكة ، وأقام فيها قضاةً أفاضل من خيار تلامذته وطلابه .

وكان له مسئوليات أخرى غيرُ هذه التي سلف الحديث عنها ، وهذا بيان تقريبي بأهم ما كان يقوم به ذاك الرجل الفذ من المسئوليات في مجال التعليم والإفتاء والقضاء وغيرها :

(في مجال التعليم)

١ — رئاسة الكليات والمعاهد العلمية .
٢ — رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
٣ — رئاسة المعهد العالي للقضاء .
٤ — رئاسة معهد إمام الدعوة .
٥ — الإشراف على رئاسة تعليم البنات .
٦ — رئاسة المكتبة السعودية .
٧ — رئاسة المعهد الإسلامي في نيجيريا .

(في المجالات الإدارية والشرعية)

٨ – دار الإفتاء .
٩ – رئاسة القضاة .
١٠ – رئاسة المجلس العالي للقضاء .
١١ – رئاسة المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي .
١٢ – رئاسة دور الأيتام .
١٣ – رئاسة مؤسسة الدعوة الصحفية .
١٤ – الإشراف على نشر الدعوة في إفريقيا .

وكان إلى جانب هذه المهام التي تنوء بها العصبة أولو القوة : خطيب الجامع الكبير ، وإمام الفروض الخمس في مسجده ، والمشرف على ترشيح الأئمة والموظفين الدينيين ، وعلى تعيين الوعاظ والمرشدين .

وكان قد بدأ في إنشاء (مجلس هيئة كبار العلماء) ، واعتُمدت له ميزانية مالية لعام ١٣٨٩ ، غير أن الأجل وافاه قبل أن يباشر المجلس أعماله .

هذا موجز تقريبي للأعمال التي كان ينهض بها ذاك العَلَمُ الفرد ، ويملأها بعلمه وحِلمه وحكمته وحصافته وصبره وجَلَده ، وما أصدق قول الشاعر البحتري فيه :

قلبٌ يُطِلُّ على أفكــاره ويَدٌ تُمْضِي الأمورَ ونَفْسٌ لَهْوُهــا التَّعَــبُ

وإن الدارس لحياته ليُدهَشُ من هذا الدأب العجيب ، والجَلَد المتواصل ، والتوازن العظيم الذي كان يتحلّى به هذا الإمام الجليل ، والتوازنُ في الرجال ، عند إدارة الأعمال ، من أغلى الصفات وأندرها ، فكان يُصرِّف أمور التعليم والقضاء والإفتاء والإدارة في كل تلك المرافق الهامّة الواسعة ، بصمتٍ كامل ،

وحكمة وروية ، دون دعاية ولا ضوضاء ولا إعلان ، ويقوم مع هذا كله بالتعليم بنفسه ، وبالتأليف ، وبإجابة المستفتين والقضاة عما يَعْسُر عليهم حَلُّه ، دون أن يَطغى منه جانب على جانب ، فلله درُّه ما كان أقواه عزماً وحزماً وجلَداً ودأباً في ميادين الخدمة للإسلام والمسلمين .

وإذا كانت النفوس كبــاراً   تعبت في مرادهــا الأجسامُ

تآليفه وآثاره المدوَّنة :

كان الشيخ رحمه الله تعالى من أشد العلماء غراماً بالعلم وتحقيقه ونشره والتأليف فيه ، وكان يقع العلمُ منه تحصيلاً وعطاءً موقعَ الغذاء من البدن ، ولكن هذه المسئوليات الجسام العديدة ، وهذه المهام الكبيرة المنوطة به : كافية أن تجعله لا يفرغ لتدوين رسالة إلى أحد أولاده وإذا سافر وبَعُدَ عنه ، فضلاً عن تأليف رسالة علم أو تصنيف كتاب ، غير أن عَزَمات الشيخ المَضَّاءة ، وقوة توازنه العظيم ، وشدة محافظته على الوقت : مكَّنته من التأليف والتحقيق والنشر ، وأعطَتْ منه مثلاً لما يُقرَأ في تراجم العلماء قصيري الأعمار ، كثيري المؤلفات والآثار ، كيف تم لهم ذلك ؟ وعجَز غيرُهم عن القيام بمثله مع العمر الطويل ؟ ! والجوابُ : هو ذاك العَزْمُ الصُّلْب ، والتوازُنُ الكامل ، والدَّأبُ الدائم ، والحفظُ التامُّ للوقت ، يأتي بالعجائب من الإنتاج والإبداع .

فقد ألَّف الشيخ رسائل وكتباً كثيرة ، لم يُتِحْ لي الوقتُ الضيِّقُ الذي أكتُبُ فيه هذه الترجمة باستيفاء أسمائها وإحصائها ، وأعلَمُ من سابق اطلاعي على ما اطلعتُ عليه منها : أنها تتميز بالعمق والدقة والشمول والاستدلال وجُلُّها في المشكلات العلمية العويصة ، وبعضها في الردود على من شَطَّ عن

الجادَّة ، وله فتاوي جامعة ، في العبادات والمعاملات والعقائد ، وهي قيد الإعداد للطبع والصدور ، وتقوم إدارة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بإخراجها وطبعها ، وستكون في خمسة مجلدات كبار .

وله كتاب جمَع فيه (ألف حديث شريف) ، واختار تلك الأحاديث من دواوين كتب السنة المعتمدة : الكتب الستة وغيرها ، وراعى في الاختيار أن يكون الحديث أصلاً في موضوعه ومعناه ، أو يتضمن أصلاً . وهذا الكتاب قيد الإخراج أيضاً ، يقوم بنشره سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد نجل المؤلف حفظه الله تعالى . ولا يَبْعُدُ أن يكون لدى بعض طلابه المجدِّين استيفاء لأسماء مؤلفاته ورسائله وأجوبته ، فإن ذلك من تمام الخدمة للعلم وأهله .

مسلكه الفقهي :

نشأ الشيخ في قلب بلاد نجد التي شاع فيها مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وجُلُّ أهلها حنبليون ، وقد تفقّه الشيخ على علماء أسرته وشيوخ بلده ، وهم من كبار فقهاء السادة الحنابلة ، فهو حنبلي المذهب ، ولكنه لم يكن متعصباً للمذهب ، بل لم يكن يلتزمه دائماً في آرائه الفقهية وفتاواه ، وإنما كان يعتمد المذهب ما قام الدليل ، فإذا رأى الدليل في غيره أرجَحَ قال به دون حرج أو تردد . وهذا المسلك شائع في كتبه ورسائله وفتاواه .

ولم يكن الشيخ محمد يرى أن الخروج عن المذاهب الأربعة المعتمدة ، ولا كان يميل إلى الاجتهاد الانفرادي ، الذي يقع من بعض العلماء في هذه الأيام ، وما كان اهتمامه وسعيه بإنشاء « مجلس هيئـة كبار العلماء »

إلا ليُتجنّبَ هذا المسلك الشديد العِثار ، بنظرٍ جماعي يُسلّمُ فيه من غائلة الانفراد بالآراء القاصية !

وكان يكره الأقوال الشاذّة ، وينْفرُ من أصحابها ودُعاتها ومروّجيها جداً ، ولا يرى مسلكهم يؤدي إلى خير أو رشاد ، ويرى الخيرَ مع الجماعة . ويحتاط في فتاواه كل الحيطة في الحفاظ على الدين ، ولا يلتزم العمل بالصُّورة الفقهية إذا أدت إلى نتيجة لا تتفق مع مقاصد الشريعة ، وذلك من فقَاهة نفسه ، وسَعَة أفقه ، وبصارته بمصالح الأحكام .

ولقد حضرتُ مجلسه الخاصَّ يوماً في دار الافتاء ، وكانت الأسئلة والاستفتاءات تُقرأ عليه ، فيُملي الإجابة عنها بإيجاز ووضوح ، وكان من جملة الأسئلة سؤال مضمونُه أن رجلاً سائلاً يقول ما معناه :

إن امرأتي كانت مستقرة العيش عندي ، ولم يكن بيني وبينها جفاء أو كراهية ، فتعلّق بها قلب رجل آخر ، واستهواها أن تتزوجه بعد أن تتركني ، واستمالها إلى نفسه فمالَتْ اليه ، وجعلَتْ تكدِّرُ عَيْشَها معي حتى طلّقتُها دون أن أعلم بإفساد الرجل لها علي إلا بعد طلاقها ، والآن يريد أن يتزوجها ، وقد استفتَى بعضَ كبار العلماء ، فأفتاه بجواز زواجه منها ، فما قولكم أبقاكم الله ذخراً للإسلام والمسلمين .

فأملى الشيخ رحمه الله تعالى الكلمات التالية : إذا ثَبَتَ أن الراغب في زواجها هو الذي أفسدها على زوجها حتى طلّقها ، فلا يجوز زواجها منه ، ويُعامَلُ بنقيض قصده .

وهذا جواب غايةٌ في الفقه السديد ، والرعاية لمقاصد الشريعة ، ومصالح العباد ، وحفظ البيوت والاستقرار فيها ، ورحم الله الشيخ ما كان أهداه إلى الفقه الصحيح ، ولم تغره الصورة الفقهية .

الشيخ والشعر والأدب :

كان الشيخ رحمه الله تعالى مع انصرافه التام ، إلى جلائل الأعمال وكبرى المهامّ ، وتبحّره في العلم والفقه والتفسير والحديث وعلوم العربية تحصيلاً وتعليماً : متذوّقاً للأدب الرفيع ، محباً للشعر الجميل الرصين ، يَهَشُّ لسماعه ، ويطرب لوقعه ، ويميز متينَه من ضعيفه ، ولا يستغرب هذا من هذا الإمام الفقيه ، فإنه من صميم جزيرة العرب ، ومن قلب نجد مَهْد الشعر والشعراء .

وكان رحمه الله تعالى يقول الشعر في المناسبات الباسطة أو القابضة ، وقد تقدم أنه رَثَى عمه العلامة الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى ، بقصيدة لامية تبلغ ٥٥ بيتاً ، وله قصائد غيرها في الرثاء ومناسبات الغزوات والفتوحات والإخوانيات ، وله شعر لطيف يؤرِّخ به ميلاد أبنائه وأحفاده بحساب الجُمّل ، كما له شعر على طريقة اللغز في بعض المسائل العلمية ، يحاجي به الأذكياء من الطلبة وشُداة العلم ، يحرك به عزائمَهم للبحث والاستفادة .

حليته وأخلاقه وتاريخ وفاته :

كان الشيخ رجلاً موفور القامة ، ممتلىء الإهاب ، متماسك البنية صحة وقوة ونشاطاً ، أسمر اللون ، عظيم الهامة ، سليم القلب ، صادق اللهجة ، رحيماً ، بعيداً عن التكلف والتصنع ، متواضعاً لا يحب المدح والثناء عليه ، عَفّ اللسان جداً ، صامتاً ، قليل الكلام ، حتى اذا رآه من لا يعرفه يحسبه عَيِيّاً لطول سكوته ، وحكمتُه أسكتته ، كان لا يتكلم إلا فيما ينفع ، من أمر أو نهي أو إرشاد ، أو حاجة ، وبوجز ، صبوراً حَمُولاً تَغلي همومُه

وغمومه في صدره ولا يشعرُ بها جليسُه ، لا ينتقم لنفسه مع قدرته على ذلك ، ويَدَعُ الانتقام احتساباً .

وكان شديدَ الثبات على رأيه ، شديدَ التحري جداً قبل أن يُصدرَ حكمه على إنسان أو في قضية ، يتحرى العدل والإنصاف ، مَهيباً ، وقوراً ، له هيبة في الصدور كهيبة الملوك ، دفَعَتْ عن مجالسه فضولَ الفضوليين ، وأحاديثَ المستثمرين ، ولم يكن يعطي أذناً منه لأحد في مجلسه ، ليَنال من أحد فيه ، وكان مجلسُه مجلسَ حِلْمٍ وعلم ، لا تُؤبَن فيه الحُرَم ، ولا تُرفَعُ فيه الأصوات ، ولا تُذكَرُ فيه فَلَتاتُ الناس .

إذا وَعَدَ وَفَى كما وعد ، ولا يَعِدُ صراحةً إلا قليلاً يحتاط لنفسه وذمته ، يُصغي لمحدثه وهيبته تَفرِضُ على محدثه أن لا يطيل ، يحب أهلَ العلم والصلاح والتقوى وينبسط إليهم ، ويكرم ذوي الفضل والدين والخير ، ويهتم بشؤون المسلمين ويتألم لألمهم أينما كانوا ، وإذا حزَّ به أمر فزِع إلى الله في دفعه ، وأدار الرأي بأخذ الأسباب فيه ، دائم الرجوع إلى الكتاب والسنة في استلهام الصواب والرشاد فيما يلتبس عليه ، وما هو بالمعصوم ولكنه المتحفِّظُ بالله والدين والعقل والعلم ، لا يتوانى عن النهوض بواجباته وأعماله على تنوعها وكثرتها ما لم تَقعُد به صحتُه ، لا ينفك عن العلم سامعاً أو مُسمِعاً إذا فَرَغ له الوقت .

وما كلُّ ما فيه من الخير قلتُـــه ولا كلُّ ما فيه يقولُ الذي بعدي

وما زال محافظاً على الإفادة والاستفادة منه إلى أواخر أيامه ، يفيد الناس في كل ما يرجعون به إليه ، ويُقرَأ عليه درسُ التفسير من كتاب الإمام ابن جرير بعد أذان العشاء من كل ليلة في المسجد ، ويصلي بالناس ، حتى نَزَل به المرض واشتد ، فأقعده عن جاري عادته ، وكان يخف عليه حيناً

ويقسو حيناً ، حتى وافاه الأجل المقدور في رابع العَشْر الأواخر من رمضان سنة ١٣٨٩ في مدينة الرياض ، فبكته العيون ، وشيّعته القلوب ، وحَمَلَتْه أيدي كبار العلماء أبنائه والصالحين والمحبين إلى مرقده .

وكانت الفجيعة به فادحة جداً ، والأسف عليه عظيماً ، والمُصاب به جَلَلاً عاماً ، والثناء عليه وعلى جهود وجهاده طيباً عَطِراً ، أثنَتْ عليه الألسنة البعيدة والقريبة خيراً ، وتَرَكَ فراغاً كبيراً لم يُملأ بعده ، فقد كان صَرْحاً رفيعاً للعلم وأهله ، وسِيَاجاً منيعاً للدين وذويه ، ونصيراً للإسلام والمسلمين في بلده وخارج بلده ، ولما مات انثلم السِّيَاج ، وانقضَّ الصَّرْح ، وانطوى رَجُلُ الجهادِ والعلم والحزم والدين .

وكلُّ ثَلْمٍ فإنَّ الدهـر يَجبُرُهُ وما لِثَلْمِ مَهِيضِ الدينِ جُبرانُ

وما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنه بُنيـانُ قوم تَهَدَّمـا !

تلامذته وأبناؤه في العلم :

أمضى الشيخ رحمه الله تعالى كلَّ عمره الشريف في التعليم ونشر العلم والدعوة إلى الله تعالى . . . ، وقد عاش نحو ثمانين عاماً ، عاش منها فوق خمسين عاماً ينشر تلك الفضائل ، ويبث ذلك الخير في أبناء الأمة ، فما من عالم كبير في هذه الديار إلا وهو من تلامذته ، أو من الطبقة التي أخذَتْ عن تلامذته ، وهم جميعاً مستقون من مَعِينه ، ومتعلمون بين يديه ، ومتتلمذون عليه ، فحَصْرُ تلاميذه عَدَداً وتسميةً أمرٌ عسير ، لا يمكن انضباطه .

فشيوخُ العلم الكبار والجامعات الإسلامية والكليات والمعاهد العليا ، وشيوخُ القضاء والإفتاء ، وشيوخُ المعاهد المتقدمين في العلم هم من طلابه ،

وهذا أمر معروف ، ونَسبٌ شريف يتفاخَرُ به المنتسبون إلى حلقة الشيخ في هذه الديار النجدية ، ويعتزون به . وما كان بي من حاجة إلى تسمية أحد منهم ، لولا أن البعيد عن هذه الديار ، إذا سمعوا أسماء بعض تلامذة الشيخ الذين هم من كبار أهل العلم اليوم ، زادت معرفتهم بمقام الشيخ العلمي وزعامته الدينية الوارفة ، فمن أجل هؤلاء أسوق بعض الأسماء ، معتذراً عن عدم الاستيفاء .[1]

١ – سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد ، الرئيس الأعلى لمجلس القضاء .

٢ – سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، الرئيس العام لإدارة الافتاء والبحوث والدعوة .

٣ – سماحة الشيخ عبد الملك بن إبراهيم ، شقيق الشيخ ، والرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف بالمنطقة الغربية .

٤ – سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ، نجل الشيخ ، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود قبل تقاعده .

٥ – سماحة الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، نجل الشيخ ، ووزير العدل .

٦ – الشيخ سليمان بن عبيد آل سلمى ، رئيس المحكمة الكبرى بمكة المكرمة .

٧ – الشيخ عبدالله بن سليمان المسعَّري رئيس ديوان المظالم في المملكة سابقاً .

---

١) الاسماء المذكورة جلها منقول من ترجمة الشيخ في كتاب « مشاهير علماء نجد » للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف ال الشيخ وهناك أسماء كثيرة أخرى .

٨ ـ الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد رئيس هيئة التمييز بالمنطقة الوسطى والشرقية .

٩ ـ الشيخ عبد العزيز بن عبدالله آل الشيخ رئيس هيئة الأمر بالمعروف في المملكة ووزير المعارف سابقاً .

١٠ ـ الشيخ عبدالله بن يوسف الوابل ، نزيل مدينة أبها .

١١ ـ الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ ، أحد قضاة مدينة الرياض .

١٢ ـ الشيخ عبد الرحمن بن فارس ، أحد قضاة مدينة الرياض أيضاً .

١٣ ـ الشيخ عبد الرحمن بن سعد ، القاضي ، من بلدة ملهم .

١٤ ـ الشيخ إبراهيم بن سليمان من آل مبارك ، قاضي بلدة الخرج والأفلاج .

١٥ ـ الشيخ سعد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن رويشد .

١٦ ـ الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، مؤلف « مشاهير علماء نجد » .

١٧ ـ الشيخ إبراهيم بن عبدالله آل الشيخ ، ابن أخي الشيخ .

١٨ ـ الشيخ محمد بن عبد العزيز بن الشيخ حمد بن عتيق .

١٩ ـ الشيخ عبد العزيز بن عجلان ، من بلدة نعام المعروفة .

٢٠ ـ الشيخ محمد بن مسلم آل عثيمين ، قاضي مدينة تبوك والبِدَع .

٢١ ـ الشيخ عبد الرحمن بن عبدالله بن فَرَيّان .

٢٢ ـ الشيخ راشد بن صالح بن خُنَيْن ، وكيل وزارة العدل .

٢٣ ـ الشيخ سعود بن رشود ، رئيس محكمة الرياض .

٢٤ ـ الشيخ سعد بن محمد بن فيصل آل مبارك ، قاضي مدينة شقراء .

٢٥ ـ الشيخ محمد بن مُهَيْزِع ، أحد القضاة في مدينة الرياض .

٢٦ – الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي جامع « مجموع فتاوي ابن تيمية » .
٢٧ – الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي ، نجل المذكور قبله ومعينة في جمع « الفتاوي » .
٢٨ – الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي أمين مكتبة كلية الشريعة بالرياض .
٢٩ – الشيخ محمد بن الأمير ، أحد قضاة المحكمة الكبرى في الرياض .
٣٠ – الشيخ صالح بن محمد بن لحيدان ، رئيس الهيئة القضائية العليا .
٣١ – الشيخ محمد بن جبير رئيس ديوان المظالم في المملكة .
٣٢ – الشيخ زيد بن فياض الوهبي التميمي مؤلف الروضة الندية وغيرها .
٣٣ – الشيخ عبد الرحمن بن عتيق ، القاضي .
٣٤ – الشيخ عبدالله بن عبد العزيز الخضيري ، القاضي .
٣٥ – الشيخ عبدالله بن عبد العزيز الراجحي ، أحد المدرسين .
٣٦ – الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن الراشد ، أحد المدرسين .
٣٧ – الشيخ محمد بن فُوزان بن مُشرف ، أحد المدرسين .
٣٨ – الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري ، المحدث الفقيه الباحث في دار الإفتاء .
٣٩ – الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن جابر ، القاضي .
٤٠ – الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي ، أحد المدرسين .

هذه شَذْرَة من أسماء تلامذة الشيخ ، لا تُعبِّر عن عددهم إطلاقاً ، فهم لا يُحصَون كثرةً كما أسلفت ، وإنما تُعبِّر عن نموذج للمستوى العلمي الرفيع الذي نهض به الشيخ ، وخلّفه في أبنائه أكابر العلماء في هذه الديار ، فرحمه الله تعالى ، وأسبغ عليه شآبيب رحمته ورضوانه العظيم .